

مدخل

تؤلف الحقبة التاريخية التي انتهت عام ١٩١٥ ، في رأي كينز : «حقبة مدهشة من جهة التطور الذي حققه الانسان ، كما بلغت فيها الذروة التي سجلها العالم الليبرالي والرأسمالي ، . ففي الوصف البليغ الذي رسمه لنا هذا العالم الاقتصادي المشهور بيان مفصل لهذه التطورات التي تحققت والتي تتمثل ، على الوجه الامثل ، في ازدهار الدول ، وفي هذا الفنى والحبوحة التي توفرت للأفراد وبهذا الشعور العام بالطمأنينة . فالعالم كله يبعث الى اوروبا الغلال والمحاصيل التي تضمن بها عليها حقوقها ، كما ترسل اليها المحاصيل الاستوائية التسادرة التي لم تكن لتخطر على بال احد في الامس القريب وهذه المحاصيل والغلال التي يؤلف وجودها اليوم ، علامة من علامات البذخ والرفاه . كذلك فتح العالم ابوابه على مصراعها امام المصنوعات التي باستطاعة المصانع الاوروبية وحدها توفيرها له . فبرزت لنا صورة عالم مزدهر منفتح بحيث لم يبق من الحواجز المعيقة سوى ظللتها ، وحيث تتوافد وتسير بحرية مطلقة ، الناس والبضائع والسلع ورؤوس الاموال ، والافكار ، وحيث بلغت حركة الانتاج والتجارة ، في اوروبا ، سدة المنتهى ، وسجلت أعلى مستوى عرفه تاريخ البشرية جمعا .

وهذا الموطن الاسطوري للثروة السابقة ، وهذه «الجمهورية المثالية» التي يصفها لنا كينز ، هي ابعد من ان تمثل العالم القديم حتى ولا اوروبا بجمعها . بل هي صورة قسم من اوروبا «اوروبا السائدة المسيطرة» ، ممثلة ببعض اقطارها الواقعة الى الغرب او في القلب ، والتي يؤلف كل منها مشعلا من «مشاعل الحضارة الاوروبية» . والدول التي اطلت حديثا على العالم في الخارج ، كالولايات المتحدة الاميركية واليابان ، هذه الدول التي تطمع في ان تكون لها حصتها في المشروعات الاستثمارية الكبرى ، هي من حفيدات اوروبا ومن تلميذاتها الناهيات بعد ان اقتبست منها : مناهجها وطرائقها ومثلها واساليب عيشها . وعلى نسبة ما تمثلناه من الطابع الاوروبي استطاعتا تمثيل هذا الدور الذي لعبته اوروبا من قبل .

وهذه السيطرة التي تمت للرجل الابيض - او بالاحرى لفريق منه - وهي سيطرة لا تعدو

مع ذلك ، القرن السادس عشر ، اعترفت بواقعه الشعوب التي دارت في فلكها ، بعد ان تنامي الناس اصولها الحديثة امام ما شهدته من التطورات المدهشة التي حققتها في القرن التاسع عشر والنجاحات الهائلة التي سجلتها . وبفضل هذه السيادة وفي سبيلها امكن ، على ما يبدو ، تحقيق الوحدة في كوكبنا الارضي هذا . فالنظام الاقتصادي والسياسي الذي مكّن هذه النجاحات هو من المتانة والصلابة بحيث تحمّدت كل خطر . فالشاعر التي تشد الناس الى الماضي واصحاب النظريات الخيالية والثورية التي قسال بها فريق صغير ، هي التي اخذت تنتقص من قيمة الرأسمالية الليبرالية والديموقراطية النيابية التي لم يشكّ مع ذلك ، احد بالمستقبل الزاهر الذي سيطل عليها .

وبعد ذلك بأربعين سنة ، وفي اعقاب حربين هالميتين وازمة اقتصادية ، لم يشهد التاريخ من قبل مثل هذا الاتساع او الشمول الذي اتخذته لها ، تغير الوضع بغيره تماماً . فالازمة التي تخض عنها العالم منذ مطلع القرن ٤ والتي انفجرت مدوية عام ١٩١٤ ، هزّت اوربا من اساساتها . وهذه الحرب الاهلية التي اكتوت اوربا بلهبها المحرق مدة اربع سنوات ، والثورة الروسية التي نشبت عام ١٩١٧ ، كل ذلك وما اليه ، انزل « بالنظام الليبرالي الرأسمالي » ، هزات لم يعرف له معها استقراراً بعد . والمحاولات العديدة التي بذلت لاعادة الوضع القديم الى ما كان عليه ولبثت العصر الذهبي الى الوجود ، والرجوع بالانسانية الى لذة العيش والطمانينة التي نعيم بها العالم قبل ١٩١٤ ، باتت كلها بالفشل . وقبل ان يزرع العالم من جديد تحت ضغط الازمة الاقتصادية التي اطلت عليه عام ١٩٢٩ ويبتلى بمقابيل الحرب العالمية الثانية ، بدأ المحلل اوربياً أمراً لا مرد له ولا محيص عنه وكذلك النظام الذي كان اساس قوة اوربا وسيطرتها . وإجلاء الاسبوع الاسود على وول ستريت في ٢٤ تشرين الاول ١٩٢٩ كانت نذيراً بتدهور النظام الرأسمالي ، وبذلك قضي تماماً على هذه الاحلام المسولة التي راودت خيال رجال السياسة كما راودت خيال رجال الاعمال وكلهم يهفو الى طلوع عهد جديد من الطمانينة معللاً النفس بمستقبل زاهر بسام . وفي هذا الوقت بالذات تطل علينا حكومات وانظمة جماعة عبثت ساخرة ، بكل المبادئ الليبرالية ، هذه المبادئ التي سكّنت الركن الركين للحضارة الاوروبية منذ القرن الثامن عشر .

والحرب العالمية الثانية التي دمت العالم قبل ان يستعيد قواه الخائرة في اثر الازمة الاقتصادية التي نزلت به ، حملت معها هذه النظم الفاشستية كما استفحل معها انقسام العالم محاور واحلافاً ، كما راحت بلدان كثيرة استبيحت باحتها تشراب باعناقها الى الاستقلال متنسمة الحورية أينها هبت . فالقارة الآسيوية بأسرها تنفض عنها نير الدول المستعمرة واستخلاص بقايا

الامبراطورية من الاوروبيين بعد ان عاثوا بها وعبثوا، ولن يمضي كبير وقت حتى تستعيد حريتها السليب . وبلدان اميركا اللاتينية التي كانت تعول على الولايات المتحدة ، زادت نفرة من الدولار الاميركي ومن استملاء اصحابه .

فالحقبة تؤلف ازمة تجعل كل مكتسبات الحضارة تهتز وترتجف امام ثورة عارمة لامثيل لها ولا نظير . وقد ارتدى العالم وجهاً جديداً ليس في المجال السياسي والاقتصادي فحسب ، بل ايضاً في مجالات العلم والفن والفكر . وهي ثورة عميقة هزت عنيفاً النظريات الفيزيائية وطلعت علينا بكشوف علمية تأخذ بجماع القلوب ، وتساعد على إعادة النظر في البنيان الفلسفي القائم . فرجال الفن والكتاب يبحثون عن اشكال وصيغ جديدة تساعدهم على فهم وتفهيم كل معضلات العصر ومنجزاته ، كما تفلسف لنا ، بأسلوب جديد ، الوشائج والاراصر الجديدة ، التي تشد الانسان الى نفسه والى العالم .

وهكذا تتم للإنسان نجاحات علمية وفنية قادرة على تغيير اوضاع الحياصة وظروفها ، وشرائط الحروب واصولها ، فتضع لأول مرة في التاريخ تحت تصرف البشر ، إذا ما ارادوا ذلك ، الوسائل التي تساعدهم تماماً ، على التغلب على الويلات التي اناخت منذ القدم ، على صدر الانسانية ، وأرزحتها .